

الفروسية

أصول الفروسية

« من الطريف أن يكون الشعر العربي ، أثناء الحروب الصليبية ، قد أدى - ولست أدري بأى تأثير عنى- إلى تكوين المثل الأخلاق الأعلى لفرسان فرنسا . »
جول لميتر

هناك بين كلمات اللغة الفرنسية كلمة نبيلة ، عريقة الأصل ، سامية المعنى ، تلك هى كلمة : الفروسية . فما يستطيع أن ينطق بها الناطق دون أن يختلج بالتأثر ، لأنها تسجل تطورا عميقا فى أخلاق البشر وعواطفهم .

ولن نحاول أن نعرف « الفروسية » . فهى طائفة من الأفكار والعواطف والنظم ، هيات أن تحتويها صيغة واحدة . إنها تحمل فى أول أمرها طابع منظمة دينية - بل لنكاد نقول كهنوتية - إذ قد أوحى بها الكهنة ، ووجهوها فى سبيل الدفاع عن المسيحية . ولكنها لم تلبث حتى تحررت من وصاية القسيسين والرهبان عليها ، وأصبحت عالمية شهمة إنسانية ؛ فقد وسعت مجال نشاطها النبيل منذ القرن الثانى عشر ، ولم تقتصر على

حماية الكنيسة ، بل جعلت من نفسها ناصر الضعيف على القوى ،
ومنصف المظلوم من الظالم. وحينما ولت المنظمة وزالت ، بقيت « الفروسية » ؛
ولم تبق مزية للفرسان وحدهم ، بل غدت تراث الفرنسيين جميعا . ومنذ
ذلك الحين ، أصبحت فرنسا بأسرها — لا بضعة من أبنائها — هي التي
تنهض بمهمة الدفاع عن مصالح المسيحيين في بلاد الإسلام ، وحماية
الضعاف طرا ، وعقاب الجور أينما طغى ، وتولى أمر كل قضية عادلة
أو كريمة حتى تفوز وتنتصر .

ولذلك فإن كلمة الفروسية لا تثير ذكرى شلمان وأقرانه الاثنى عشر
فحسب ، ولا ذكرى الحروب الصليبية وواقعة « فونتنوا » أو استقلال
أمريكا وحروب الثورة الفرنسية كذلك ، ولا إعتاق اليونان وتحرير إيطاليا
أو ملاحم « المارن » و « فردان » فقط ، بل إنها تثير — مع كل هذا
— ذكريات الاستبسال العفيف ، والتضحية الفردية والجماعية — من
أجل مبدأ — وإغاثة الملهوف ، وعقيدة الشرف ، وإجلال سمو
الأخلاق ، كما تثير في النفس معاني الساحة الباسمة وسط المخاطر ، والرقعة
التي تلازم القوة ، والتودد والكرم في معاملة العدو . . .

• • •

والذي يميز « الفروسية » من الحضارة اليونانية والرومانية هو تفتح
وازدهار عواطف جديدة ، لم تكن معروفة لدى القدماء ، مثل عاطفة
الشرف ، التي تفرض على المرء ألا يراوغ في أداء الواجب ، أو يحسب

حساب الخطر ، وأن يغسل العار بالدم ، ومثل الوفاء بالوعد الذى يدفع المرء إلى إيثار الموت على إختلاف ما قطع من عهد ، ومثل حماية الضعيف والمظلوم حماية لا يملها غرض ولا انتفاع ، ومثل مراعاة جانب الإنسانية أثناء القتال وتوخى الكرم بعد الغلبة ، ومثل احترام المرأة ، وأخيراً هذا الطابع الذى اتسم به الحب ، فبعد أن كان الحب يعرض للرجال طارثا بسيطا ، أمسى مرهفا صوفيا ، وأصبح غاية سعيهم وحافزه . على أن هذه الصفات المميزة للفروسية من شأنها أن توجد - فى صورة بدائية أو كاملة التطور - فى أجواء متباينة وفى عدد من البلاد عبر مختلف العصور :

لدى العجم والعرب ، ولدى أهل اسكنديناوة والجرمان ، هذا إذا لم نذكر اليابانيين ومحاربى سومطرا وقبائل « الماورى » فى زيلندة الحديدية . . .

وهنا يحق التساؤل عما إذا كانت الفروسية نزعة طبيعية من نزعات النفس الإنسانية ، أم قد استعارتها من شعب معين شعوب أخرى . وبعبارة أخرى ، ما هو أصل الفروسية ؟ هل نبتت فطريا فى الروح وفى الأرض الفرنسية ، أم ترى قد استقت شرائعها ومثلها الأعلى من منهل أجنبي ؟

وليكن سؤالنا أولا : فى أى عصر ظهرت « الفروسية » فى فرنسا ؟

ويجب عن هذا السؤال أصحاب التاريخ وأصحاب الأدب إجابات متباينة متناقضة ؛ فالفروسية تنتمى إلى الشعر بقدر ما تنتمى إلى التاريخ أو أكثر ، ما دامت هى حلما من أجمل ما راود الفكر الإنسانى ، وما هى بعد كل شيء إلا انطلاق مدعم نحو المثل الأعلى . . انطلاق توارره شجاعة

المقاتلين وعزيمتهم أقل مما توارزه روعة الشعراء وعبقريتهم . فن الكتاب من يصعد بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » بل وإلى ما قبله ، أى إلى عهود لم تكن هذه المنظمة معروفة فيها بعد ، كما يلاحظ ذلك الأستاذ « دى سانت بالاي »^(١) ومنهم من يرجعها إلى زمن الحروب الصليبية^(٢) . ويحدد شاتوبريان مولدها خلال حقبة تقع بين سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٣^(٣) ، على حين يذكر « س . دى سيسموندى » أنه « كلما أمعن المرء فى دراسة التاريخ ، رأى أن الفروسية تجديد يكاد أن يكون بروته شعريا ، فالباحث لا يصل قط عن طريق الوثائق الأصلية إلى تحديد البلد الذى كانت سائدة فيه ، فهى دائماً صورة مرسلة من بعيد . وبينما يبسط لنا المؤرخون فكرة جلية مفصلة كاملة عن رذائل حياة البلاط حول الملوك والأمراء ، وعن استعباد الشعب ، فإنه يدهشنا أن نرى الشعراء بعد فترة من الزمن ، يبحثون تلك القرون بعينها متلألئة بخيالات كلها من وشى الفضائل ورقيق الشمائل والولاء »^(٤) .

-
- (١) لاكورن دى سانت - بالاي (Lacurne de Sainte-Palaye) : مذكرات عن الفروسية القديمة ، الجزء الأول ، تعليق (١) من القسم الثانى .
(٢) انظر جان - جاك أمبير (J.-J. Ampère) : منوعات من تاريخ الأدب ومن الأدب ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨ وما يليها .
وبارتيلمي سانتيلير (Barthélemy Saint-Hilaire) : محمد والقرآن .
(٣) شاتوبريان (Chateaubriand) : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا ، ص ٣٨٦ .
(٤) س . دى سيسموندى (S. de Sismondi) : فى أدب جنوب فرنسا ، الجزء الأول ص ٩٠ ، ٩١ .

وليست مشكلة التأريخ وحدها هي التي تثير نزاع الكتاب ، فإن الفروسية في جملتها ، على الرغم من أنها كانت ، في عصور مختلفة ، موضع دراسات جدية — ولعلها لهذا السبب ذاته — قد فتحت مجالا شاسعا للنقاش والجدل. فقد نظر إليها كل كاتب من وجهة خاصة ودرسها وفقاً لثقافته أو عواطفه ؛ فقوم يخلطون بينها وبين الإقطاع ، وآخرون يعتبرونها شرفاً موقوفاً على طبقة النبلاء دون سواهم ؛ فهي تبدو في أعين هؤلاء منظمة ثابتة ، ومنهجاً أحكمت عقائده وشرائعه ودقائقه واتبعت في كل مكان بطريقة واحدة ، بينما تبدو في أعين أولئك — على النقيض — منهجاً معقداً من السلوك والمبادئ ، ومثلاً أعلى من الكمال الأخلاقي والاجتماعي والعسكري اصطلاح الناس عليه بوجه عام وقد أيسح لكل امرئ أن يصبو إليه ، شريفاً كان أم صعلوكاً . ولم يدع الباحثون حتى كلمة « فروسية » ، فاتخذوا منها مادة دراسات بل وبحوث لغوية لا يتوقعها العقل أحياناً . ألم يتجشم أحد أعضاء مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا عناء استنباط كلمة « شفاليري » — أي الفروسية (Chevalerie) — من « كلمة شروال أو (شلوال) التي يطلقها المسلمون على الإزار الطويل الذي كان من العلامات المميزة للمباري أو البطل » ؟^(١) .

(١) مذكرات مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا. مجلد السنوات ١١٤٨-١٨٥٤

ص ٢٦٧ ، مقالة هـ. جيس (H. Guys) .

ولفظه « شلوال » نقلناها طبق الأصل . وربما كان من المفيد أن نثبت في هذا المعنى

كلمتي « شليل . سربال » . (تحقيق)

لن يدهشنا بعد ذلك إذن أن يقدم لنا الكتاب هذه الفروسية
— مدعين ما يذهبون إليه بأسانيد تاريخية أو شعرية، متينة أو دقيقة — على
أنها ذات أصل روماني خالص^(١) ، أو عربي خالص^(٢) ، أو جرمانى^(٣) ،
أو مسيحي^(٤) ، بل ويسعى بعض المؤلفين إلى التوفيق بين مختلف العناصر
فيكشفون للفروسية أصلاً جرمانياً عربياً مسيحياً في آن واحد^(٥) . . .

وتعتمد هذه المناقشات جميعها — في رأينا — على خطأ أساسى هو
دراسة الفروسية باعتبارها وحدة لا تتجزأ ، كأنما هى منظمة ثابتة لا يعثرها
تغير ، أو كأنها قوة غالبة قد احتفظت دائماً ، منذ نشأتها حتى زوالها
بأشكال معينة ومميزات معينة . وكان الأجدر بنا أن ننظر إليها كعمل
إنسانى قابل للتبدل والتحول والتطور . ولقد أسلفنا أن الفروسية مجموعة

(١) الأب أنوريه دى سانت — ماري (Père Honoré de Sainte-Marie) : مقالات
تاريخية وفقدية في الفروسية القديمة والحديثة .

(٢) أ . دى بيرون (A. de Beaumont) : أبحاث في أصل الشمار . ج . دلكلوز
(J. Delecluse) : رولان والفروسية . ل . فياردو (L. Viardot) تاريخ العرب
والأندلسيين .

(٣) أ . دى بارتيلمي (A. de Barthélemy) : في نعت الفارس
لاكورن دى سانت — بالاي (Lacurne de Sainte-Palaye) : مذكرات عن الفروسية
القديمة

(٤) جوتييه (Gautier) : الفروسية .
(٥) انظر كتاب أمبير وشاتوبريان السابق ذكرها — وهردر (Herder) : أفكار
في فلسفة التاريخ ، ترجمة كينييه (Quinet)

من الأفكار والأخلاق والعواطف والنظم ، وهذه المجموعة لم تمسك لحظة عن التبدل والتطور عبر القرون . وهكذا تعددت المراحل ، وتعددت التحولات ، بل ويمكننا أن نقول أيضاً وتعددت « الفروسيات » . فينبغي إذن أن نقف لدى كل مرحلة من هذه المراحل لتحديد تاريخها ، وأن ننظر في كل تحول طراً لنستقصي أسبابه ، وأن ندرس على حدة كل فروسية من هذه الفروسيات المتتالية ، ثم ندرسهن جميعاً إذا أردنا أن نخرج بفكرة كاملة عن الفروسية .

على أن هذا ليس هو الغرض الذي نرى إليه ، وإنما يكفيننا أن نبحث عن التأثيرات التي تولت خلق الفروسية وتنميتها ، حتى نجتلي أصولها : فمعجمات اللغة تعرف الفروسية بأنها : « منظمة عسكرية إقطاعية خاصة بطبقة الأشراف ، قد نذر أعضاؤها على أنفسهم نذرا دينيا » وهذا تعريف غير دقيق ، لأن كل فارس كان يستطيع أن يمنح سواه الفروسية ، كما كان لغير الأشراف أن ينصبوا فرسانا ؛ وهو فوق ذلك تعريف ناقص ، إذ لا يراعى في الواقع غير هيكل الفروسية الخارجي ، مهملا نفحة الروح التي تبعث فيها الحياة ، على حين أن التمييز بين المنظمة - أي الشكل الظاهري للفروسية - وبين الفكرة والروح والعواطف التي تنبض بها ، أمر جوهرى لاستبانة أصولها ، « فكثيرا ما خلط القوم بين تنصيب الفرسان وبين الفروسية ذاتها » (١) .

(١) لاكورن ، الجزء الأول ، ص ١٢ ، تعليق ١٤ .

ولقد رأى معظم الكتاب — معتمدين على نص من نصوص « تاسيت » — أصل الفروسية فيما اعتاده الجرمان من تقليد الرمح والدرع في احتفال رسمي للفتى المتقدم الذى قد اعترف له بالقدرة على حمل السلاح^(١) . على أن الاحتفال الذى يتحدث عنه « تاسيت » كان مما يقام فى فرنسا منذ عهد شرلمان بل ومنذ عهود الملوك السابقين — وهذا مما يعلل رجوع بعض المؤرخين بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » — إلا أن صورة هذا الاحتفال قد تغيرت فيما بعد . فالحفل العسكرى البسيط قد أصبح حلقة دينية صوفية . فلقد كان الأمر أولاً ، أن المحارب الفتى يسلحه أميره أو أبوه الذى كان يعطيه الـ « كولىه » (La Colée) أى صفة عظيمة بالكف على قفاه . ولما كانت الكنيسة فى ذلك العصر تتدخل فى كل أفعال الحياة ، فقد تدخلت فى هذا الفعل الذى يصنع الفارس ، وأحلت العناق محل الصفع ، وأضافت إلى الحفلات الهمجية شعائر دينية لم تلبث حتى أبدلتها منها (كالصوم والتهجد ومناسك التوبة والثناءل يؤديها الفتى فى ورع ، والاستحمام الذى يمثل تطهير المعمودية ، وارتداء الثياب البيض أسوة بالداخليين فى الدين ، وأخيراً مباركة السيف بصلاة الكاهن وتسليمه بعد تقديسه ، للفتى الشريف . .)

وأما عن منظمة الفروسية ، فينسبها صاحب كتاب « فلسفة تاريخ البشرية » إلى الأصل التالى، وهو ما يبدو لنا أكثر الآراء صحة ووجاهة :

(١) تاسيت (Tacite) : أخلاق الجرمان ، الفصل الثالث عشر .

يقول هردير : « كانت جميع القبائل الجرمانية التي ملأت أوروبا تتألف من محاربين ، وكان أهم قسط من الحملات هو ذلك الذي يقوم به الفرسان ، فكان من الطبيعي أن يطمحوا إلى جزاء يتناسب وخدماتهم . وسرعان ما تشكلت هيئة من الفرسان أتقنت فنها في نظام منهجي ؛ فألف رفاق الدوق أو الملك أو قائد الجيش في المعسكرات شيئاً فشيئاً ما يشبه مدرسة حربية كان أتباعهم يبدءون فيها التدريب . فإذا برز هؤلاء ، استطاعوا أن يعلموا بدورهم تلاميذ آخرين ، بوصفهم قدماء لهم حقوق الأساتذة. ومن العسير أن يكون لمنظمة الفروسية غير هذا الأصل »^(١). تلك هي أصول « الفروسية » باعتبارها منظمة عسكرية . وقد يكون الاحتفال بتسليح المحارب الفتى أو انخراط الفرسان في سلك جماعة مصطفاة ذات امتيازات ، مما يرجع إلى أصول جرمانية ، ولكننا نتورط في الخطأ ونخلط بين الهيكل الجامد والروح التي تحييه ، وبين السيف واليد التي تنتضيه ، إذا زعمنا أن الفروسية — بوصفها عبادة الجمال الأخلاقي — شيء أبدعه الجرمان . فإن العقل السليم والتاريخ ليأبيان مثل هذا التأكيد .

لقد « كان الجرمانى — وقد استسلم لغرائزه الفطرية قبل أن تشحذها المبادئ وقبل أن تنظمها الواجبات — رجلاً أنانياً ، قاسياً ، يحب الانتقام والاغتصاب ، وكان دينه — وهو الخشوع لقوى الطبيعة أو تأليه الشجاعة

(١) هردير: أفكار في فلسفة التاريخ (ترجمة ادجار كينييه)، الجزء الثالث ص ٤٣٦ .

الحربية - يسبغ على الوحشية معنى القضاء الإلهي . وكان تاريخ آلهته قصص عراك وقتل ، وكان خير ما يقدم إليهم من قربان ، وخير ما يستدر به رضاهم ، ذبائح بشرية ؛ وأما الفردوس الذي وعدت به الآلهة هؤلاء المحاربين فقد كان ميدان قتال لا ينقطع فيه سيل الدماء ، وفيه يشرب المرء في جسمة عدوه . ولم يكن مثل هذا الدين مما يرقق النفوس «^(١) بل لعله من الممكن القول بأن أى دين لم يكن مستطيعا أن يرقق نفوسهم ؛ فإنه على الرغم من اعتناقهم المسيحية - فيما بعد - ، قد ظلت تغلب عليهم النزعة الدينية الأولى ، ومضوا يعبدون القوة .

ودونكم تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى ، حينما كانت الفروسية الأوروبية في أوجها ، فهل تجدون فيه سوى سلسلة طويلة من المذابح وضروب النهب والإجرام والتخريب ؟ لقد سجل المؤرخ التيوتونى « سيزار دايبترباخ » (César d'Heisterbach) أن « الأمراء والبارونات كانوا لا يرون حرجا في الحنث بأيمانهم »^(٢) . ورسم لنا « بورخارد دورسبرج » (Burkhard d'Ursperg) - بعد أن نهينا إلى أن معظم البارونات والفرسان كانوا لصوصاً - هذه اللوحة الموجزة لألمانيا في القرن الثالث عشر بقوله: « في كل مكان رجال طغاة ، قساة نهاشون ، جشعون مسرفون ،

(١) منيه (Mignet) : مذكرات أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، الجزء الثالث سنة ١٨٤١ : « كيف دخلت جرمانيا القديمة في المجتمع المتحضر لأوربا الغربية » .
 (٢) زيلر (Zeller) : تاريخ ألمانيا ، ص ٥٧٥ .

متجبرون في طرق الكسب والسلب ، لا يخضعون لغير شهواتهم ، يلبسون العدالة بأقدامهم ، ويتنازعون المنافع والمتاصب باللديسة والخبث ، وبالاغتيال إذا اقتضى الأمر . . . » (١) .

وهذا هو « هردر » - على الرغم من أنه ألماني - يلاحظ ملاحظة ضمنية ، هي أن الفرنسيين كانوا أساتذة التيتون في الفروسية ، إذ يقول : « عندما هرعت جميع الأمم إلى فلسطين وكأنها تهرع إلى مهرجان كبير ، اتصل فرسان ألمانيا بفرسان فرنسا ، فتجردوا شيئاً فشيئاً من عنفهم التيتوني » (٢)

وتخلاصة القول فإن الفروسية - بوصفها منظمة عسكرية - تنبت جذورها من عادة جرمانية عتيقة هذبتها الكنيسة وأحاطتها بالطقوس المتبعة في القرون الوسطى .
ولنبحث الآن عن العواطف التي أدت إلى خلق روح الفروسية ونموها .

في المجتمع الهمجي والمجتمع الإقطاعي « وما هو في الواقع إلا مجرد تطور للعرف الجرمانى من ناحية معينة » (٣) يقوم الحق على أساس القوة .

(١) زيلر : المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) هردر : المرجع المذكور ، ص ٤٤٩ .

(٣) أوجستان تيرى (Augustin Thierry) : قصص من عصر المير وفنجنين ،

فالمثل الأعلى للمحارب ، أن يكون شديد البأس مغوارا كشرلمان الذى يصوره المؤرخون القدماء بأنه يستطيع « بضربة واحدة من سيفه أن يشق المحارب - الراكب المدجج فى سلاحه - من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بما فى ذلك الحصان » ، وأن تكون أولى صفاته الشجاعة ، حتى « لقد كان أى سب يوحى بالانتقاص من شأنها ، يوجب العقاب ويقتضيه ، فبئز الرجل بأنه أرنب مثلا أو طفل قدر ، كان يستتبع تعويضاً قدره ثلاثة دراهم ذهبية أو ستة »^(١) .

ولكن عندما اجتمع عدة محاربين تحت إمرة رئيس واحد ، أصبح من الواجب إقامة رادع لخدمة طباعهم المتحفزة للقتال وتوجيهها نحو الغرض المنشود فقط ، من غزو أو اغتنام . ولقد ذموا منذ ذلك الحين أخلاقا إقطاعية ، أو بالأحرى ، ولاء التابع للمتبوع - أى عدم خروج المرعوس على الرئيس ، ورعاية الرجل لما عاهد عليه السيد وأصحابه . ومقابل هذا كان على الرئيس أن يحترم ما التزم به أمام رجاله . وأصبح القانون الأعلى هو « العهد » فالرجل الولي (legalis = loyal) هو الذى يحفظ العهد ، والرجل المخلص (Preux = Probus) هو الولي المقدم فى آن واحد^(٢) . وينبغى أن نلاحظ أن الولاء هنا ليس إلا ولاء نسبيا فهو لا يتعدى

(١) شاتوبريان : دراسات تاريخية ، الدراسة السادسة : « أخلاق البرابرة » .

(٢) لافيس ورامبو (Lavisse et Rambaud) : التاريخ العام ، الجزء الثانى ، ص ٦٠ .

علاقات السيد برجله والزميل بزميله ، ولكن ذلك كان على أية حال خطوة إلى الأمام .

ولقد أتاحت شريعة الوفاء هذه للسيد - عندما يبلغ مرحلة الشيخوخة - أن يبيت في مأمن مما يمكن أن يوجه إليه من ضربات ، زميل له أشد منه قوة وأعظم بأسا . وامتدت فيما بعد آثار هذا الوفاء ، فشمّل العهد جميع ما يخص السيد ، من أرض وزوجة وأبناء . وكانت سنة الشرف تقتضى المقاتل الذى قد صار فارساً ، أن يحلّ قرينة سيده وأن يمنع ولد سيده ويحميه ، إذ هو أضعف من أن يدافع عن نفسه . . .

وتدخلت الكنيسة إذ ذاك لتوسع للفارس أفق مثله الأعلى ؛ فحولت الشراسة الهمجية إلى شجاعة واستبسال ، ووضعت الوفاء الدينى فوق وفاء الفتى لمولاه - فأصبح على المرء ألا ينقض وعده قط ، وأن يتجنب الكذب - وأفسحت أفق الحماية الواجبة لزوجته السيد وولده فشملت جميع المستضعفين والمظلومين ولا سيما الكنيسة ، وحضت على الجود والاعتدال . . .

ولكن التحمس للدين - ولعله قد فتر أو بدا ضيق الأفق - لم يعد ، قرب القرن الثانى عشر ، غاية الفارس الوحيدة . فقد لحق بعمل الكنيسة التحضرى تأثير العرب التحضرى أيضا ، وقامت إذ ذاك فروسية حرة اجتماعية : تنصرف بعض الشيء عن الدين وتضع المروءة والمودة فوق كل اعتبار ، ثم لم تلبث أن أثارت سخط الكهنة ، وخاصتهم . ولقد كان

الحب وإغاثة الملهوف وتعظيم الشرف الحربى هو روحها وحافزها ومثلها الأعلى .

تلك — فيما نرى — هى العواطف التى أدت إلى نشأة روح الفروسية ونموها فى العالم الغربى ، وهى عواطف يمكن إيجازها فى كلمة واحدة : « الحضارة » . فلو أن النظام الإقطاعى لم يوجد ، لنبتت الفروسية من تلقاء نفسها ونمت فى بعض أقطار أوروبا ، ولما فات فرنسا أن تتأدب بأدابها حتى ولو لم تكن قد دانت بالمسيحية . والدليل على ذلك ، أننا نجد الفروسية قائمة بين شعوب مختلفة العقائد ، متباينة النظم السياسية . وهذا يعنى أن الفروسية نزعة كامنة فى طبيعة النفس الإنسانية ، وطموحها للمجد ، وفى عواطف الحب ، تديرها وتنظمها آداب مهذبة مصقولة . « إنها تولد مع الشعور بالقوة الشخصية لدى الأجناس الممتازة ، ولسنا نعى القوة الغاشمة بل القوة الناتجة عن عنفوان طبيعى يخضعه عقل متسلط » (١) .

إنها نواة النبيل الأخلاقى التى أودعها الله أعماق القلوب ، فهى توق النفس إلى الخير، إلى المثل الأعلى، إلى الله . وإذا كان الإنسان — كما قيل — روحاً إلهياً قد هوى وما زال يتذكر السموات ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى الفروسية على أنها تحقيق فاضل لهذه الذكري السماوية . فليست الفروسية الفرنسية إذن — كما يقول الكتاب — ذات أصل

(١) فيوليه لدوك (Viollet-le-Duc) : معجم الأثاث ، الجزء الخامس ، ص ٦ .

جرمانى أو إقطاعى أو رومانى ولا مسيحى أو إسلامى كذلك . . بل هى
فرنسية . . وإن كان لا يعنى هذا أنها لم تتأثر بحضارة العرب . وتوضيح
هذا ، أن الشرق والغرب عندما تلاقيا - فى رونسفو أو فى أسبانيا ، فى
فلسطين أو فى مصر - كانت الفروسية قد نبتت بالفعل فى فرنسا شجرة
أو شجيرة أو برعما . غير أنه كان لهذا التلاقى آثار ونتائج لعل أهمها ،
ما أضفى على الفروسية من دقائق بارعة ، من ألوان الرقة الرائعة والأناقة النبيلة .
فالبذرة قد نبتت - ولا شك - فى أرض فرنسا ؛ أما أنها قد قامت
بعد ذلك أكثر سرعة وأصلب عودا . . وأما أنها قد أشرقت بزهر
أروع وتضوعت بشذى أرق وأطيب - فإنما الفضل فى ذلك كله لشمس
الشرق وصيا نجد . وذلك ما سنحاول الآن تبيانه .